تحقيق في مفهوم الأسطورة بين ما هو تاريخي وما هو خيالي

أ/ بدر الحمومي
طالب دكتوراه
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
المغرب- فاس

تاريخ الإرسال:03-08-2018 تاريخ القبول:13-11-2018
تاريخ النشر:12-12-2018

ملخص:
يهدف هذا البحث إلى كشف مفهوم ومعنى كلمة "أسطورة" بوصفها دلالة على روايات تاريخية تم تحريفها بإضافة خصائص خيالية لها من باب المبالغة وتنميق والترميز. كما أن البحث عودة للاصطلاح من حيث اللغة والمفهوم لتوضيح معنى قل من يشير إليه وهو أن الأسطورة هي ما سطره الأولون، حسب التعبير القرآني، سواء كان تأريخا أو حكيا خياليا ارتبط بالإنسان والإله، بخلاف المعنى السائد للأسطورة بوصفها خرافة دينية.
الكلمات المفتاحية: الأسطورة، الخيال، التاريخ، القرآن الكريم، القصة، الميثا.

Abstract

This research aims to demonstrate the notion and meaning of the word « *Ostora* » (Myth) as a significance for historical tales that have been distorted by fabricating further over exaggerated fictional characteristics in order to symbolize and beautify. It is also a reference to the (Arabic) linguistic meaning of the word *Ostora* which is related to the verb *Satara* (to line) as an act of the predecessors, according to the Quranic expression, let that act be a chronicle or a fiction relevant with god(s) and human being. However, this former meaning opposes the prevalent notion of *Ostora* as a religious fable.
Keywords : Ostora, fiction, history, Holy Quran, story, myth.

مقدمة:

عندما تُسْمَعُ كلمة "أسطورة" فأول ما يتبادر إلى الذهن هو قصة خيالية وخرافية لا أساس لها من الصحة، وإنما رويت من باب التسلية والتسامر أو لجهل وتخلف الحضارات القديمة ... وهو خلط منهجي بين الأسطورة والخرافة، وجناية على القيمة العلمية للأسطورة بوصفها جزءا من تاريخ البشرية. لكن التاريخ نفسه قد احتوى على ما هو خيالي عارٍ عن الصحة. ولهذا ينبغي الوقوف عند مفهوم الأسطورة من حيث الدلالة اللغوية في اللغات السامية والهندو-أوروبية. وللتأكد من قيمة الأسطورة التاريخية يجب القيام ببعض المقارنات النموذجية للأساطير وكذلك الاستعانة بالقرآن الكريم. وانطلاقا من هذه العملية تم في هذا

البحث تحديد الفاصل الذي يميز ما هو تاريخي عن ما هو خيالي في الأسطورة. فما هو مفهوم الأسطورة انطلاقا اللغات السامية وعلى رأسها اللغة العربية واللغات الهندو-أوروبية وعلى رأسها اللغة اليونانية؟ وما هي الرؤية القرآنية لهذا المفهوم؟ وما هو الحد الذي يفصل بين التاريخ والخيال في الأسطورة؟

1-تحقيق في مفهوم الأسطورة:

الأسطورة هي مجموعة من القصص التقليدية تحكي عن أفعال خارقة للعادة لكائنات إلهية تحمل دلالة رمزية. وقعت تلك الأحداث التي ترويها الأسطورة في زمن غير محدد ومكان غير معروف، كما أن مؤلفها مجهول. ذلك أنها إنتاج مجتمعات حضارية تناقلتها عبر عدة أجيال. وتهدف الأساطير إلى الإجابة عن التساؤلات الفلسفية لإخراج الإنسان من الجهل بأسرار الكون وظواهر الطبيعة[1].

ويعرف فراس سواح الأسطورة فيقول: "إن الأسطورة هي حكاية مقدسة، ذات مضمون عميق يشف عن معاني ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"[2]. والأسطورة بالنسبة إليه تتميز بالجدية والشمولية فنجد فيها أحاديث عن التكوين وأصل الخلق، والموت والآخرة، وأسرار الوجود ومعنى الحياة[3]. وهي ليست تساؤلات فلسفية تخضع لمحاكمة عقلية بل مضامين مسيطرة لا تقبل جدلا وإنما تلجأ إلى الخيال والعاطفة والترميز وتستخدم الصور الحية المتحركة.

ويقول مؤلفو كتاب الأسطورة والتوثيق الحضاري أن: "الأسطورة هي القصة الشعرية المصفوفة زجلا أو شعرا بحيث تحوي موضوعا دينيا يتعلق بالقوة العلوية والخفية، وتعبر عن معارف الإنسان الأول وأخلاقه ومستويات علومه وتأملاته، وهي موضوعة في قالب ذي إيقاع شعري موسيقي يتضمن الحدث المراد تأريخه سواء كان من صنع الإنسان أو الطبيعة أو الرب، لأجل أن يتلى ويتداول يؤدي دوره في تثقيف العقول وتحريك المشاعر"[4]. ويرى مرسيا إلياد أن الأسطورة قصة حقيقية[5].

ولفهم هذه التعاريف وتحليلها ينبغي العودة للمعاني اللغوية لكلمة أسطورة باللغة العربية. وكذلك بعض المعاني المستشفة من بعض اللغات السامية. إضافة إلى العودة لكلمة Myth بالإنجليزية وجذورها في اللغات الهندو-أوروبية.

إن عرب ما قبل الإسلام قد استخدموا كلمة أسطورة بمعنى الكتابة حيث ورد هذا المعنى في القرآن في قول الله تعالى: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}[6] أي أن {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}[7] هي كذلك مشتقة من سَطَرَ وسَطَّرَ. حيث قال ابن منظور في معنى سطر: "والجمع من كل ذلك أسطر وأسطار وأساطير؛ عن اللحياني، وسطور. ويقال: بنى سطرا وغرس سطرا. والسطر: الخط والكتابة (...) وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين، معناه سطره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة، كما قالوا أحدوثة وأحاديث. وسطر يسطر إذا كتب"[8]. وقد أشار ابن منظور إلى المعنى المتداول من أسطورة والذي يقصد به أباطيل والأحاديث التي لا نظام لها. لكن هذا يعتبر معناها الثاني، بينما يرتبط معناها الأول بالكتابة والتأليف تعبيرا عن الأحاديث والأخبار التي سطرت من قبل.

واعتمادا على رواية السيوطي عن جويبر في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى: {فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً} قال: "مكتوبا وهي لغة حميرية يسمون الكتاب أسطورا"[9]، قال حسن

قبيسي: "هذا ما نسميه اليوم بلغتنا المعاصرة مسجلا ومدونا ومكتوبا، كانوا يسمونه بالعربية القديمة مسطورا ومسطرا"[10].

وبما أن للأسطورة علاقة بالسطر، فإنه من المهم الإشارة إلى أن تعبير "إلى آخره" والتي يقابله تعبير Et cetera، المستعمل في اللغة اللاتينية، ويعني "الأشياء الأخرى الناقصة"، إنما هو شريك صوتي للفعل "سَطَرَ"[11]، وأصله السرياني "واتْسطرا"[12]. إذن فالأسطورة هي سطور لم تكتب. فليس من الضرورة أن تكون أساطير الأولين قد كتبت لكنها تُنوقلت دون كتابة. لكن تبقى الأسطورة كلاما منظوما سطرا وراء سطر[13].

أما عند اليونان فتعني كلمة Istoria قصة وتاريخا[14]. كما إن أصل كلمة تاريخ Istoria إسطوريا في اللغة الإغريقية وتعني البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة أي معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية ثم انتقلت كلمة Istoria ليقتصر معناها على معرفة نمو وتطور هذه الظواهر زمنيا. فاستخدمه االرومان بهذا المعنى وسموه Historia. كما يشير جاك لوغوف "Jack Le Goff" إلى أن الجذر الإغريقي لكلمة Histoire الفرنسية هو Istor وتعني الشاهد بمعنى البصير أو المبصر Voyeur أي الباحث عن المعرفة والمحقق والفاحص، أي أن المؤرخ هو متابع للأحداث أو يسرد متابعة شخص آخر للأحداث. وكلمة تاريخ بهذا المعنى لم يعرفها الأدب العربي قبل الإسلام ولم ترد في القرآن الكريم[15]. وحتى كلمة تاريخ بمعنى توقيت أو الحقبة أو الزمن فلا يمكن الجزم أن أصله عربي بل لعل أصله فارسي[16]. ولم تصر كلمة تاريخ بمعني تدوين أخبار الإنسان إلا في بداية القرن الثاني الهجري وهو تعبير مصطلحي وليس لغوي تحول إلى معنى الصنعة والفن أو العلم ما بين القرنين الثامن والتاسع الهجري مع ابن خلدون والسخاوي.

وبما أن اللفظ الصوتي بين أسطورة وإسطوريا يكاد يكون واحدا في الأصلين العربي واليوناني فإنه ليس من المستبعد أن يكون المعنى الأصلي للأسطور هو نفس المعنى الذي يحمله التاريخ. ولعل المعنى السلبي الذي نقله مفسرو القرآن لكلمة أسطورة للثقافة العربية جعلهم ينبذون استعمال كلمة أسطورة كمقابل عربي لكلمة Istoria والذي يعد معنى حياديا لكلمة تاريخ والذي يقصد منه عمل تحقيقات وأبحاث وهو نفس المعنى الذي اسخدمه هيرودوت أبو التاريخ[17]. وبما أن الإغريق قد أخذوا الحروف الأبجدية عن الفينيقيين-الكنعانيين أجداد العرب[18]، فإنه يحتمل أن لكملة إسطوريا أصل سامي يقصد به كتب الأولين التاريخية وليس الخرافات والأباطيل. ومن ذلك نخلص للقول أن كلمة أساطير الأولين هي كتابات تاريخية، ومنه نستنتج أن الأسطورة هي حكاية لوقائع تاريخية بغض النظر عن صحتها من بطلانها.

علاوة على ذلك، فإن المقابل اللاتيني لكلمة أسطورة Mythos فيحمل أيضا معنى الوقائع التاريخية والأخبار، ولو كانت الرواية بطريقة رمزية من خلال الذاكرة الجماعية. خاص عندما تضفى عليها التصورات المختلفة صفة القداسة واليقين والنموذج حينها تصير أساطيرا[19]. ولكن جورج رزق حينما ترجم كتاب الأسطورة والفكر اليوناني لـ"جان بيا فرنان" رفض أن يترجم كلمة Mythe الفرنسية إلى أسطورة لأنه اعتبر الميثة هي "الصيغة التعبيرية التي قالت بها الحضارة اليونانية ذاتها بدءا، شعرا وإنشادا وقصا، ثم استعمالا وتوظيفا"[20]. لأن الميثة تروي أحداثا خرافية خارقة تعود إلى الأزمنة الوثنية الغابرة وأبطالها الآلهة وأنصاف الآلهة وهي غير مرتبطة بأي حدث تاريخي، بينما الأسطورة، التي رأى

المترجم أن مقابلها هو La Légende، تتناول أحداث تاريخية أبطالها بشر فتطورها وتضخمها المخيلة الشعبية أو الإبداع الشعري الملحمي، مثل سيرة بني هلال أو سيرة عنترة بن شداد. فإن التقت الميثة مع الأسطورة في خوارق العادات فهي تختلف معها في نوع الأبطال وفي الأساس التاريخي[21].

كما أن ميثوس Mythos الإغريقية تعني أيضا قصة وحكاية[22] والفرق يكمن في أن الأسطورة والميثة تعتبران قصصا وحكايا مقدسة، كما أن Mythos تعني كلمة أو خطاب وتتداخل في معناها مع مصطلح Logos التي يمكن أن يفهم منها معنى "الكلمة التي تثير نقاشا وجدالا. والميثة Mythos تصف قصة عن آلهة وكائنات بشرية خارقة وهي تجربة للمقدس في كلمات، حيث تروي حقائق وأحداث عن أصل العالم لا تزال صالحة باعتبار أسسها وأهدافها العامة[23].

ويتضح مما ورد في الفرق بين الأسطورة والميثة، أن الأسطورة لا تختلف عن الميثة في المفهوم، لكنها تختلف عند جورج رزق في طبيعة الشخصيات، ومن ثم جعل الأسطورة شبيهة للخرافة، وقد نقبل رفضه لترجمة الميثة إلى أسطورة من حيث كون الميثة غالبا ما ترتبط بحدث خيالي لا صلة له بأي حدث تاريخي، في حين قد ترتبط الأسطورة بما هو تاريخي وإن تخللها ما هو خيالي.

2-الأسطورة في القرآن الكريم:

يختلف مفهوم الأسطورة في القرآن عن المفهوم السائد عند أغلب المفسرين، والذي لا يتجاوز أن يكون موقفا تأويليا. ليس المقصود في القرآن من كلمة {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}[24] ما فهم منه بأنها أباطيل وأكاذيب وخرافات، وإنما ما سطره الأولون في كتبهم، فكلمة أساطير في القرآن هي جمع لجمع أسطر والمقصود بالأولين الذي سبقوا. ووجه القدح في تعبير كفار قريش عن رفضهم للقرآن لكونه – في نظرهم – مجرد ما سطره الأولون، هو أنهم اعتبروه كلاما بشريا وليس وحيا وأن كتب مثله كتبت من قبل بغض النظر إن كان ما سطر في تلك الكتب كذبا أو صدقا إلا أنه لا ينفك أن يكون – حسب رأيهم- كلاما يحلق في سماء البشرية.

ولم يرد في القرآن الكريم ما يدل على أن المقصود بجملة {إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، خرافاتهم أو أباطيلهم، لكن معظم المفسرين ركزوا على الأساطير من حيث هي حجة كفرية استدل بها الكفار للطعن في القرآن، متناسين السياق التاريخي والمفهوم اللغوي للكلمة. فنجد القرطبي - الذي يعتبر جامعا لما ورد في التفاسير التي قبله- مثلا يقول: "نزلت في النضر بن الحارث، كان خرج إلى الحيرة في التجارة فاشترى أحاديث كليلة ودمنة، وكسرى وقيصر، فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا. وكان هذا وقاحة وكذبا"[25]. ويرى القرطبي أن الأساطير ما هي إلا أباطيل وترهات[26] ويخلط بينها وبين الخرافات.

وفي المقابل نجد الرازي يعود لأقوال اللغويين مثل الواحدي الذي قال: "وأصل الأساطير من السطر، وهو أن يجعل شيئا ممتدا مؤلفا ومنه سطر الكتاب وسطر من شجر مغروس". وابن السكيت حيث قال: "يقال سطر وسطر، فمن قال سطر فجمعه في القليل أسطر والكثير سطور، ومن قال سطر فجمعه أسطار، والأساطير جمع الجمع"، والزجاج الذي قال أن: "واحد الأساطير أسطورة مثل أحاديث وأحدوثة". ثم بين أن جمهور الأشاعرة يقول أن

{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} هي "ما سطره الأولون". ودعم بقول ابن عباس الذي قال: "معناه أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها أي يكتبونها"[27].

وفي المقابل، عبر كل من الرازي وابن كثير عن موقف موضوعي في تفسيرهما لكلمة أساطير بكونها ما كتبه الفرس من أخبار رستم اسفنديار وهو أمر زعمه النضر بن الحارث وقد نقل هذا الخبر السدي وسعيد بن جبير وابن جريج وغيرهم. أي أن كفار قريش تبنوا موقفا مضمونه أن ما في القرآن قصص أدبية من جنس يشابه جنس قصص أولئك القوم السالفين. ويعقب الرازي قائلا: "فأما قول من فسر الأساطير بالترهات، فهو معنى وليس مفسرا. ولما كانت أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ مثل حديث رستم واسفنديار كلاما لا فائدة فيه لا جرم فسرت أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ بالترهات (...) اعلم أنه كان مقصود القوم من ذكر قولهم {إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} القدح في كون القرآن معجزا فكأنهم قالوا: إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة، والقصص المذكورة للأولين، وإذا كان هذا من جنس تلك الكتب المشتملة على حكايات الأولين وأقاصيص الأقدمين لم يكن معجزا خارقا للعادة. وأجاب القاضي عنه بأن قال: هذا السؤال مدفوع لأنه يلزم أن يقال لو كان في مقدوركم معارضته لوجب أن تأتوا بتلك المعارضة وحيث لم يقدروا عليها ظهر أنها معجزة. ولقائل أن يقول: كان للقوم أن يقولوا نحن وإن كنا أرباب هذا اللسان العربي إلا أنا لا نعرف كيفية تصنيف الكتب وتأليفها ولسنا أهلا لذلك. ولا يلزم من عجزنا عن التصنيف كون القرآن معجزا لأنا بينا أنه من جنس سائر الكتب المشتملة على أخبار الأولين وأقاصيص الأقدمين"[28].

فأساطير الأولين ليست بالضرورة كذبا أو افتراء إنما هي ما سطره الأولون، ويقول ابن كثير في جملة واحدة تفسر جملة أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ وتحمل دلالات عميقة ما يلي: "ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم"[29].

ولأن تلك الكتب قد حملت نفس الثيمات القرآنية والمواضيع التي ناقشها فإنها عبارة "عن إعادة للقيم الدينية والمعتقدات في قوالب ملحمية محببة لتحفظ"[30]. فلا ينبغي أن يتسرع في الحكم عليها فاعتبارها ترهات وأكاذيب فهي بالنهاية تختلف عن ما يسمى في الثقافة العربية "خرافة". والأساطير باختصار في مفهوم القرآن هي كتب الإنسان الأول التي احتوت مفاهيم عن الكون ونشأته ونهايته.

إضافة إلى ذلك، يرى الباحث محمد الصالح الضاوي أن الاستعمال القرآني للفظة "الأساطير" جاء في سياق مقابلتها للوَحْيِ بوصفه نورا يحمل شعلة إيجابية غير مختلطة بالتقاليد والتدخل الإنساني وخاصة السياسي منه، فأساطير مفهوم يختلف عن الذِّكْرِ والخُلُقِ. فإن الكفار الذين ادعوا أن القرآن ما هو إلا أساطير الأولين قد تمنوا أن يكون لهم ذِكْرٌ من الأولين فقالوا: {لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}[31]: أي تمنوا لو أن عندهم كتابا منزلا ويُقْصَدُ به شيء من ذكر النبي وتراثه الذي تركه، وهو مصطلح يتميز بشحنة إيجابية أكثر من الأساطير. فالعرب طلبوه لكي يتميزا به حضاريا، في حين استعملوا لفظة الأساطير للحط من الوحي. لكنهم يعلمون أن مرحلة الذكر تالية لمرحلة الوحي، لأن الذكر هو تذكر وتكرار لطقوس أوحي بها في زمن سابق على زمن التذكر. ثم تأتي مرحلة الخلق وهي العادات والمذاهب حسب قول أبي جعفر وهي فترة تستأنف فيها عملية نسيان تدريجية للوحي فلا يبقى ذكرا بل خلقا وعادة أو مذهبا. ولهذا قالوا: {إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ}[32].

"فيستدعي الخيال كل أدواته لرأب الصدع في مضامين الكتابات الأولى، متحديا الزمان والتاريخ، مستنجدا بالوهم والسياسة (السطان)، فيوظف كل ما يصله من كتابات الأولين توظيفا سياسيا واجتماعيا، قافزا فوق الحقائق التنزيلية، ومتجاوزا للمضامين الأخلاقية، رابطا للولاء والاتباع باللحظة الراهنة، فتصبح كل كتابات الأولين (الوحي) مجرّد أسطر وجمع من الأسطر، موظفة في سبيل لحظة تاريخية سياسية، بعيدة كل البعد عن السياق المعرفي والتاريخي لها، وهكذا يتحول الوحي والتنزيل إلى ذكر ثم إلى أساطير"[33]. وهذا التحول هو الذي حول ديانات ومعتقدات توحيدية إلى معتقدات وثنية، وهذا حسب النظرة القرآنية التي تؤكد على أسبقية للوحي والتوحيد على الأسطورة والتعددية والتي ما هي إلا صورة مشوهة ومحرفة عن الأولى. ولذلك ظن كفار قريش أن القرآن مستنسخ من أساطير الأولين، بينما الأساطير ما هي إلا نسخ للمعتقدات الموحى بها منذ البدء وتشويه لها، وذلك بفعل انتقال السلطان من نبي وحكيم إلى ملك وأمير. وهذا ما يحول الوحي إلى ثقافة وتراث ولكن مع ذلك لا ينزع عنه صفة القداسة وهذا أمر لا تستثنى منه أي حضارة بما في ذلك الحضارة الإسلامية. إنه صراع بين سلطة روحية وأخرى زمنية تمردت على الأولى[34]، لذلك فالمتأمل لأساطير بداية الخلق البابلي مثل "الإينوما إيليش" وملحمة "جلجامش"، يرى أن الأولى تتحدث عن أن الماء كان منذ البدء، وهو نفس ما ورد في القرآن: {وَهُوَ الَّذِي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء}. كما تتحدث ملحمة جلجامش عن شخص عاش ألف سنة بعد الطوفان يدعى "أوتونابشتيم"[35]، ولعل المقصود هو نوح الطوفان الذي ورد ذكره في كل الكتب السماوية. ويضيف الضاوي: "إن القرآن يقدم نفسه إلينا باعتباره كلام الله، وذكر الله وحكمة الله، مقابل الأساطير، التي بفعل توليد أضداد الصفات، تتميز بأنها كلمات الإنسان، وذكر الإنسان، في الشكل والمضمون، وفي المنشأ والوظيفة"[36]. ولذلك قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً}[37].

ومن ثم فإن الباحث الضاوي يعتبر الأسطورة عمل بشري متأثر بما هو سياسي وأيديولوجي. وكونها عملا موجها يجعل منها عملا مقبولا في بابه الإنساني وفي نفس الوقت يجعله مضادا لنور الوحي الذي يتجاوز حدود البشرية ويتنزه عن النزعات النفسية. ومع ذلك، فإن كل هذا لا يحط من قيمة الأسطورة ولا يقلل من تاريخانيتها بمعزل عن ربطها بالكذب والخرافة.

3-الأسطورة والحد الفاصل بين ما هو تاريخي وما هو خيالي:

ليست الأسطورة بخرافة لأن هناك فرقا بين المفهومين. فالأسطورة متعقلة بالمعتقد الديني وأبطالها الآلهة والفوق بشريين، بينما ترتبط الخرافة بالحكاية الشعبية وأبطالها بشر أو جن أو حيوانات، من مثل كليلة ودمنة والسيرة الهلالية ودراكولا، كما يتميز مضمون الخرافة بالسذاجة ومخالفة المعقول[38]. وقد جاء في الحديث النبوي الشريف عن عائشة، قالت: حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ذات ليلة حديثا، فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، كان الحديث حديث خرافة؟ فقال: "أتدرين ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا من عذرة، أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهن دهرا طويلا، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة"[39].

ثم إن الدراسة المنطقية لمضامين الأساطير توضح نضج المستوى الفكري عند الحضارات القديمة. فأساطيرهم لا تحمل مفاهيم ساذجة مثلا عن الخلق والتكوين فإن الرموز التي استخدمها الإنسان القديم كان مجرد وسائل إيصال وقالب تعبير، فمثلا نجد أفكار الخلق والتكوين عند السومريين متطورة بحيث تحدثوا عن الماء باعتباره أصلا للحياة تمثل في الإلهة "نمو"، التي أنجبت "آن" إله السماء وزوجته إلهة الأرض "كي" التي كانت ملتصقة به وبفعل هذا الالتصاق ظهر عنصر مادي آخر هو الهواء المتمثل في "إنليل" إله الهواء الذي من خصائصه التمدد وبتمدده ارتفع أبوه "آن" إله السماء وابتعد عن أمه "كي" إلهة الأرض[40]. ولعل هذا يذكرنا بالبينغ بانغ ولعل البعض يزعم أنه حدث ذكره القرآن في قول الله عز وجل: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[41].

كما أن الأسطورة ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية نقلت إلى اللاحقين تجارب السابقين، وهي تعود لأزمنة ما قبل الكتابة حين كانت الذاكرة، التي تميزت بقدر كبير من النشاط والحيوية، هي الأداة الناقلة للروايات التاريخية. فالطوفان مثلا هو عبارة عن رواية تاريخية قبل كل شيء تناقلته البشرية لأنه دلالة على تجربة واقعية عاشتها الإنسانية[42]. فتكون الأسطورة بذلك تاريخا مرويا صيغ في قالب فني وأدبي واستخدمت فيه أساليب البلاغة فصار منحرفا عن الأصل.

وأول ما يجمع بين الأسطورة والتاريخ أن كلا منهما سردي أي أنه تنظيم للأحداث ضمن قصص موحدة بحيث يمكن حكيهما. لكن الأسطورة هي رواية للأصول جرت أحداثها في زمن بدائي هو مختلف عن زمن الوقائع الحياة العادية، بينما التاريخ لم ينفك أن وقع في الزمن الإنساني مهما كان الزمن الذي وقعت فيه تلك الأحداث بعيدا[43].

كما أن اشتراك القصة مع التاريخ في بعض اللغات اللاتينية كالفرنسية والأنجليزية (Histoire-histoire/History-Story) يدل على أن الأسطورة هي عصب التاريخ. فالإلياذة والأوديسا مثلا، التي وردت فيه حرب الإغريق ضد الحثيين، والتي اشتهرت بخدعة حصان طروادة، قد تحدث في الوقت نفسه عن عقوبة الآلهة للملك أوديسيوس والتي أنتجت مغامراته التي تحتوي أحداثا خارقة للعادة، يمكن اعتبارها المثال الذي يفصل بين الأحداث الواقعية والخيالية ويشير إلى تطور الكتابة التاريخية[44].

وهل كل التاريخ صحيح؟ تقول الدكتورة فضيلة حسين: "إن الأسطورة نوع من الأدب القصصي تكيفه العواطف والأحلام والأماني والمفاهيم والمعتقدات الدينية، ليس التاريخ حقائق مجردة فقط ولا الأسطورة خرافة مجردة فقط وبرغم اكتشاف الكتابة والتدوين بقيت الحقائق المطموسة، ومع ذلك تبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ"[45]. كما أن المجتمع يعيد صياغة أحداث وقعت بالفعل في الماضي في قالب قصصي، لكي تظل مذكورة، ولهذا سعت عدة مدارس تاريخية البحث في الأسس التاريخية للروايات الأسطورية.

فمثلا نجد في أسطورة التكوين البابلية انطلاقا من ملحمة إينوما إيليش وتعني "عندما (كان) في الأعالي"، أن الآلهة الأولى كانت تعيش حالة من السكون والفوضى ثم أدى تناسل آبسو وتعامة إلى خلق آلهة شابة نشيطة، ثم بدأ الصراع بين الجد آبسو والآلهة الشابة التي انتصرت على جدها وقتلته. فقامت تعامة بتجهيز جيش انتقاما لمقتل زوجها آبسو. ونظرا

لخوف الآلهة الشابة من تعامة أرسلوا إلى مردوخ الإله الفتى الشاب وأعطوه كل شيء لمحاربة تعامة، ومن ثم قتلت تعامة في المعركة على يد مردوخ، وفصل جثتها إلى شطرين: شطر رفعه إلى الأعلى مشكلا السماء وشكل صنع منه الأرض. ثم انصرف لخلق مظاهر الحياة الأخرى ومن ذلك الإنسان الذي خلقه بعد التضحية بدماء الإله كينغو الذي ترأس حملة تعامة الحربية فكان قائد مخلوقات عجيبة المخيفة[46].

هذه الملحمة بوصفها تاريخا تعتبر تجسيدا لانتقال الإنسان من الثقافة الأمومية إلى مرحلة الثقافة الأبوية حيث أن الصراع بين المعسكر الذي تقوده تعامة والمعسكر الذي يقوده مردوخ لم يكن إلا تمثيلا للصراع بين ثقافة المرأة المركز السكونية التي كانت على وئام مع الطبيعة، وبين ثقافة الأب المركز التي دخلت مرحلة السيطرة على الطبيعة. فكان سيطرة آلهة الشابة على آبسو رمزا لسيطرة الإنسان على الماء العذب وكان بناء الآلهة لبابل رمزا لبناء الحواضر. كما يرمز مردوخ الذي صار كبير الآلهة الذي بنى المعبد إلى تأسيس الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة الملك حمورابي و تدوينه الشريعة[47].

فالأساطير هي المرآة التي تعكس حياة المجتمع الواقعية أي طبيعة تصوراتهم الفلسفية للحياة. ومن ثم تعد الأساطير أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي، ولذلك يمكن اعتبار الأسطورة وثيقة تاريخية. فالأسطورة هي الصياغة الأولى للتاريخ[48]. وليس كل التاريخ حقيقة.

خاتمة:

الأسطورة هي مجموعة قصصية تقليدية لها طابع مقدس – تحكي عن أعمال خارقة للعادة لكائنات إلهية تحمل مضامين رمزية عميقة. وتعد الأسطورة نتاجا حضاريا وفكريا سعى للإجابة عن تساؤلات الإنسان الفلسفية حول أصل الأشياء، وتؤرخ للأحداث قصد تثقيف العقول وتحريك المشاعر، وقد تكون الأسطورة قصة حقيقية إلا أن المبالغات تحرف بعض مضامينها. كما تتميز المادة الأسطورية بالجدية والسيطرة أي الهيمنة وتلجأ للخيال والعاطفة لتظل محفوظة في الأذهان، كما تحكى في شكل مصفوف ومنتظم.

يقصد بالأسطورة في اللغة العربية القديمة ما كتبه الأولون أو حفظوه منتظما مسطورا دون الحاجة لكتابته. وهذا بغض النظر ما إذا كانت المضامين صحيحة من عدم ذلك. ولا يقصد من كلمة أسطورة بالضرورة أباطيل وترهات بل إن هذا معنى متأول انطلاقا من فهم سطحي للقرآن. ولكلمة أسطورة علاقة بكلمة Istoria اليونانية والتي تعني القصة والتاريخ ولهذه الكلمة أصل كنعاني وسرياني هو "أسطورا"، وتعني كتاب يسجل ما مضى. فإن المعنى السلبي الذي نقله بعض المفسرين عن أساطير الأولين هو الذي جعل عرب القرن الأول الهجري وما بعده ينبذون الاستعمال الحقيقي للأسطورة بمعنى تاريخ. فكلمة أسطورة هي مرادف حيادي لكلمة تاريخ، لأن لكلمة تاريخ معنى سرد تطور الأحوال الإنسانية وهذا فيه شيء من القطع بصحة ذلك السرد، بينما أسطورة أو إسطوريا تعني الأبحاث والتحقيقات وقد تصيب تلك الأبحاث أو تخطئ. ولا تختلف كلمة أسطورة عن كلمة Mythos ميثوس في اللغات الهندو-أوروبية، لكن جورج رزق رأى أن الأسطورة La légende أكثر ارتباطا بما هو تاريخي وإنساني من الميثة. وإن وجه قدح كفار قريش في القرآن الكريم باعتباره أسطورة من أساطير الأولين ليس كونه خرافة بل كونه من صنع بشر في حين أنه وحي منزل. فيكفي أن يخرج أحد ليقول أن القرآن هو أعظم مؤلف بشري ليكون بذلك قادحا في

نسبته إلى الله تعالى. لكن يرى الضاوي أن أساطير الأولين هي فعلا نسخ مشوهة عن الوحي انتقلت من مرحلة الوحي عبر الذّكر ثم الخُلُق، حتى صارت مجرد أسطر موظفة في سبيل لحظة تاريخية وسياسية بعيدا عن سياقها المعرفي والتاريخي. وهذا هو التحول الذي جعل الدين التوحيدي شركا ووثنية. وهنا لا يمكن أن نستثني أي ثقافة وإن كان الضاوي قد استثنى الحضارة الإسلامية. ومن هنا يمكن القول أن الأسطورة هي وجه آخر للتراث الديني والتاريخي لأمة من الأمم.

إن حضور الأساطير في بداية التاريخ البشري يجعل منها عصبا له، فهي تعبر عن نضج واضعيها خاصة أن حديثها عن أصول الخلق يعد منطقيا إذا ما قارناه بما هو علمي حاليا. كما أن مضامين تلك الأساطير موجودة في القرآن وإن اختلفت التفاصيل. ومثال على ذلك أسطورة التكوين البابلي "الإينوما إيليش" وملحمة "جلجامش". وحتى ما هو تاريخي في تلك الأساطير يمكن استثماره باعتباره مادة مفيدة للتاريخ، فيعتبر وثيقة تاريخية وإن كان لا يصل لمرتبة الحقيقة.

---

[1] فضيلة عبد الرحيم حسين، **فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ**، دار اليازوري، عمان، 2009، ص: 14-16.

[2] فراس السواح، **الأسطورة والمعنى: دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية**، دار علاء الدين ، دمشق، الطبعة الثانية، 2001، ص: 14.

[3] نفسه، ص: 13.

[4] قسم الدراسات والبحوث في جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، **الأسطورة والتوثيق الحضاري**، دار كيوان، دمشق، الطبعة الأولى، 2009، ص: 26.

[5] نفسه، ص: 23.

[6] سورة القلم، الآية: 1.

[7] سورة الأنعام، الآية: 25.

[8] ابن منظور، **لسان العرب**، ج 4، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة - 1414 هـ، ص: 363.

[9] جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج 2، تحقيق: محمد أبو الفضيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394 هـ - 1974 م، ص: 108.

[10] حسن قبيسي، **"الفكر التاريخي والأسطورة والواقع الحنظلي"**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص: 21.

[11] Maurice Grevisse, **Le Bon Usage**, De Boeck-Duculot, 13e édition, 1993, p : 293.

[12] قسم الدراسات والبحوث، **الأسطورة والتوثيق الحضاري**، م.س. ص: 23.

[13] نفسه، ص: 21.

[14] صموئيل كامل عبد السيد، **قاموس عربي يوناني**، أرتيميس ثلاسينوس، مكتبة لبنان، بيروت، 1995، ص: 7.

[15] وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ**: اتجاهات-مدارس-مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الثانية، 2013، ص.ص: 27-28.

[16] شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ**، تحقيق: فرانز روزينثال، ترجمة: صالح أحمد العلي، بيروت، الطبعة الأولى 1407هـ - 1986م، ص: 134-135.

[17] هيرودوت أبو التاريخ، **تاريخ هيرودوت**، ترجمة: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1432 هـ - 2001 م، ص: 29.

[18] نفسه، ص: 347-350.

[19] وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ**، م.س. ص: 39.

[20] جان بيار فرنان، **الأسطورة والفكر عند اليونان دراسات في علم النفس التاريخي**، ترجمة: جورج رزق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص: 17.

[21] جان بيار فرنان، **الأسطورة والفكر عند اليونان**، م.س. ص: 27-28.

[22] صموئيل عبد السيد، قاموس عربي يوناني، م.س. ص: 10

[23] Kees W. Bolle, « Myth : an Overview », **Encyclopedia of Religions**, Vol. 09, Editor in Chief : Lindsat Jones, Macmillan Reference, Thomson Gale, USA, Second Edition, 2005, p : 6359.

[24] سورة الأنعام، الآية: 25.
[25] شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964 م، ج 7، ص: 397.
[26] نفسه، ص: 145.
[27] فخر الدين الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج 12، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420 هـ، ص: 504.
[28] نفسه، ص: 504.
[29] إسماعيل ابن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، ج 3، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، 1420هـ - 1999 م، ص: 247.
[30] محمد الصالح الضاوي، **أساطير الأولين: رؤية إسلامية مغايرة**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2001، ص: 17.
[31] سورة الصافات، الآيات: 168-169.
[32] سورة الشعراء، الآية: 137.
[33] محمد الصالح الضاوي، **أساطير الأولين**، م.س. ص: 38-44.
[34] محمد الصالح الضاوي، أساطير الأولين، ص: 45-47.
[35] فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة: سوريا- أرض الرافدين**، دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الثالثة عشر، 2002، ص: 56-165-166.
[36] محمد الصالح الضاوي، **أساطير الأولين**، م.س. ص: 72.
[37] سورة الفرقان، الآيات: 4-5-6.
[38] فضيلة حسين، **فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ**، م.س. ص: 21-28-29.
[39] أحمد بن حنبل، **مسند أحمد بن حنبل، مسند النساء، مسند الصديقة عائشة بنت أبي بكر الصديق**، برقم: (25244).
[40] فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، م.س. ص: 32-33.
[41] سورة الأنبياء، الآية: 30.
[42] فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، م.س. ص: 14.
[43] Paul Ricoeur, « Myth : Myth and History », **Encyclopedia of Religions**, Vol. 09, Editor in Chief : Lindsat Jones, Macmillan Reference, Thomson Gale, USA, Second Edition, 2005, p : 6371.
[44] فضيلة حسين، **فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ**، م.س. ص: 18.
[45] نفسه، ص: 29.
[46] فراس السواح، **مغامرة العقل الأولى**، م.س. ص: 52-55.
[47] نفسه، ص: 94-95.
[48] فضيلة حسين، **فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ**، م.س. ص: 90-995.